من تراثنا الضائع :

كُتُب الشاعر

دعبل بن علي الخزاعي

كان الشعر انتهى في عصر هذا الشاعر (القرن الثالث) إلى أن أصبح كالغناء حرفة يتهيأ لها الشاعر بالممارسة الحية والنظر الطويل في شعر الفحول (وقد أخذ يدون في هذا العصر ويوضع في أيديهم) ورواية أطراف كثيرة من شعرهم ، إلى جانب ما يأخذ من اللغة والأنساب والأخبار . ثم كان كل شاعر يتأثر بثقافات العصر الأخرى التي كانت تشتبك من حوله ، على قدر ما يهيئه ذوقه ونشأته وبيئته .

وأصبح في مكنة الشعراء ، كما أصبح في مكنة المغنين ، أن يجاروا العلماء فيضعوا الكتب . وقد أشاع هذه البدعة أبو تمام فصنف كتب الاختيار الستة[1] . ثم وصل الأمر ببعض الشعراء أن وضعوا كتباً في التاريخ والطبيخ والعطر[2] .

وقد بلغ دعبل من المعرفة بالشعر والشعراء أن عده الآمدي[3] ، مع

---

(١) انظر أسماءها ووصفها في : الموازنة ٤٨ — ٩ . ويقول الآمدي بعدها : « وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، وانه اشتغل به وجعله وكده ، واقتصر من كل العلوم والآداب عليه ، فإنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه واطلع عليه ... » .

(٢) الفهرست ١٧٦ و ٤٨٣ .

(٣) الموازنة ٢٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ، « من علماء الشعر و كلام العرب » ، ووصفه ابن شرف القيرواني [١] بأنه « عالم شعراء » . وتظهر بعض النقول والروايات التي وصلت الينا مدى ما وصل اليه دعبل من ذلك حتى روى عنه ابن قتيبة [٢] والمبرد [٣] ، وصححت بروايته الروايات [٤] ، ونقلت أقواله في نقد الشعر وتقويمه [٥] ؛ وذكر أنه روى شعر شاعر مثل أبي زاسب البجلي [٦] . فليس غريباً إذن أن يكون كتب كتاباً في الشعر والشعراء نقل عنه من جاء بعده ، حتى استفاض ذكره في كتبهم وحفلت بالنقول عنه .

وذكر ابن النديم [٧] له كتاباً آخر سماه كتاب الواحدة ، وهو في مثالب العرب ومناقبها .

وأضيف اليه كتاب ثالث في أخبار ملوك اليمن ووصاياهم إلى أبنائهم .

---

(١) رسائل الانتقاد ٢٣ .

(٢) انظر مثلاً في الشعر والشعراء ١/٤٠٢ ـ ٣ .

(٣) انظر مثلاً في الكامل ٢/٥٢٦ .

(٤) انظر مثلاً في كتاب التنبيه على الأمالي للأوني ١١٨ ، وانظر أمثلة من الروايات التي نقلت عنه في : الأغاني ٣/١٩٤ واعجاز القرآن للباقلاني ١٧٦ والانبـاه للقفطي ٣/٢٣٨ والعمدة لابن رشيق ٢/١٣٩ـ٤٠ وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ١٣٢ وأمالي المرتضى ١/٣٧٢ .

(٥) انظر أمثلة في نقده البيتين اللذين نسبا إلى الرقاشي فيه (محاضرات الأدباء ٢/١٤٢) ونقده شعر شاعر أنشده (الأغاني ٢٠/٩٢) ونقده شعر القصافي (الورقة ٤٦ ومعجم الشعراء ٣٤) ونقده شعر ديك الجن (العمدة ١/٣٢٠) وشعر المهلهل بن ربيعـة (الموشح ٧٤) . وانظر : المؤتلف والمختلف للآمدي ٦٧ والعمدة لابن رشيق ١/٩٤ .

(٦) الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي (مخطوطة دار الكتب المصرية) الورقة ٣٣ .

(٧) الفهرست ٢٢٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— ١ —

فأما الكتاب الأول فقد جرى فيه ، فيما يبدو لنا ، على صورة التصنيف التي نراها فيما وصل الينا من كتب ألفت لهذا العصر في الشعر والشعراء ، بأسماء مختلفة ، وهي التعريف المختصر بالشاعر ، ونقل جملة من أخباره وشعره يرويها المصنف عمن سمعها منه .

وعلى الرغم من أن مصادر كثيرة سمت الكتاب (طبقات الشعراء)[1] ، وهي التسمية التي نعتقد أن دعبلاً سمى كتابه بها ، فان ذلك لا يعني أن دعبلاً قسم الشعراء فيه إلى طبقات ، فتكلم عليهم بطبقاتهم ، على نحو ما صنع محمد بن سلاّم الجمحي في كتابه المعروف بالاسم نفسه (طبقات الشعراء) . وإنما اختار لنفسه ، فيما يبدو ، طريقة أخرى في التصنيف ، وزع فيها الشعراء على مواطنهم ، فأفرد لشعراء كل موطن كتاباً مثل (كتاب شعراء بغداد) الذي ذكره له الآمدي[2] . و (كتاب شعراء البصرة) الذي ذكره التبريزي[3] والمرزباني[4] . ويبدو أنه

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز (اقبال) ١٥٢ ، الفهرست لابن النديم ٢٢٩ ، كتاب الرجال للنجاشي ١١٧ ، العمدة لابن رشيق ١١٣/١ ، معجم الأدباء لياقوت ١١٢/١١ ، المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب ٣٤ .
وسماه المبرد : أخبار الشعراء (الكامل ١٨٤/١) ، وابن الجراح : كتاب الشعراء (الورقة ١٢٣) ، وذكره الآمدي بقوله : « كتاب دعبل الذي في الشعراء » (الموازنة ١٦) والخطيب البغدادي ، نقلاً عن المرزباني ، بقوله : « كتابه الذي في أسماء الشعراء (تاريخ بغداد ١٤٣/٤) ونقل ذلك عنه ، فيما يبدو ، ابن خلكان (وفيات الأعيان ٦٣/١) .
وقد كانت الكتب التي تؤلف على الشعراء تسمى بمثل هذه الأسماء المختلفة على ألسنة المصنفين.
(٢) المؤتلف والمختلف ٦٢ .
(٣) شرح الحماسة : الحماسية رقم ٤٦٥ .
(٤) معجم الشعراء ٦٥ و ٢٦١ و ٢٩٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أفرد لشعراء الحجاز كتاباً ، ولشعراء خراسان كتاباً[١] . ولعله — إذا صح ما نقوله — أول من التفت إلى تأريخ حياة خراسان الأدبية . ولم يلتفت أحد اليها بعده الى اليوم !

وفي أيدينا دلائل تدل على أنه لم يقصر كتابه على الشعراء المحدثين ، بل تعداهم إلى الإسلاميين والجاهليين[٢] . فلا بد إذن أن يكون كتاباً ضخماً كان ذخيرة لمن كتب بعده في الشعر والشعراء[٣] .

ونستطيع أن نفهم ، من اشارات صغيرة وردت في بعض كتب النقد ، انه كانت للكتاب مقدمة حسنة عرض فيها دعبل لبعض قضايا نقدية عامة كان محمد بن سلاّم عرض لها ، مثل « مسألة تقارب البيتين الجيدين النادرين ومعرفة أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً »[٤] ، فهذه مسألة عرض لها ابن سلام الجمحي في كتابه من قبل ؛ ويغلب على الظن أن يكون دعبل قرأه وأفاد منه قبل أن يكتب كتابه .

وعرض دعبل ، في المقدمة أيضاً ، لأغراض الشعر وأقسامه ، فأوصى أن يصدر الشاعر في كل منها عن أحوال مناسبة قائمة في النفس[٥] . وتكلم ، فيما

---

(١) المصدر السابق ٤٥ و ٤٦ و ٣٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ٦٧ و ٢٣٩ .

(٣) تتبع أسماءهم في الفهرست لابن النديم ٧٦ ، ٩٣ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٩ .
ويغلب على الظن أن يكون كتاب دعبل أول كتاب وضع في الشعر والشعراء بعد كتاب محمد بن سلاّم .

(٤) الموازنة للآمدي ٣٤٥ ، وانظر الطبقات لابن سلام ٧ — ٨ .

(٥) انظر قوله في العمدة لابن رشيق ١٢٢/١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يبدو ، على أمدح بيت قالته العرب وتنازع الناس عليه وعلى أفخر الشعر وأكذبه[١] .

وعرض لفضل الشعر وتصديق الناس للشاعر حتى « إنه لم يكذب أحد قط إلا اجتواه الناس فقالوا : كذاب . إلا الشاعر فإنه كلما زاد كذبه زاد المدح له . ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له : أحسنت والله ، فلا يشهد له شهادة زور إلا ومعها يمين بالله تعالى[٢] » . وذكر « أن الرجل الملك أو السوقة إذا صير ابنه في الكتّاب أمر معلمه أن يعلمه القرآن والشعر ... لأنه يوصل به المجالس وتضرب به الأمثال وتعرف به محاسن الأخلاق ومشاينها ... وأي شرف أبقى من شرف يبقى بالشعر ؟ » . وضرب على قوله مثلاً فقال : « إن امرأ القيس كان من أبناء الملوك ، وكان من أهل بيته وبني أبيه أكثر من ثلاثين ملكاً فبادوا وباد ذكرهم ، وبقي ذكره إلى القيامة . وانما أمسك ذكره شعره[٣] » .

وحذر بعد ذلك من التعرض للشاعر « ولو كان من أدون الناس صنعة في الشعر » إذ « ربّ بيت جرى على لسان مفحم قيل فيه : رب رمية من غير رام ، فسارت به الركبان[٤] ... » .

وكانت هذه ، على ما يبدو ، من القضايا الدائرة آنذاك . وهي تصور ما وصلت اليه حال الشعر والشعراء من مهانة على يد المادحين حتى احتاج دعبل الى أن يقول في « فضله » مثل هذا الكلام الذي يدور بعضه على المنفعة !

ويغلب أن يكون ألقى في الكتاب أحكاماً نقدية على الشعراء تجد صوراً لها في كثير من كتب الأدب التي أفادت من كتابه ، على نحو ما أشرنا اليه منذ قليل .

(١) المصدر السابق ١٣٩/٢ و ١٤٤ .
(٢) الظرائف للمقدسي ٤١ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٣٦/٣ .
(٣) الظرائف للمقدسي ٤١ـ٢ ، وانظر : مفتاح السعادة لطاشكبري زاده ٣٠٢/١ .
(٤) الموازنة ١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد أفاد منه مَن كتب بعده في اللغة والنقد والشعر والشعراء والرجال مثل المبرد في (الكامل)[١] ، وابن الجراح في (الورقة)[٢] ، وابن المعتز في (طبقات الشعراء)[٣] ، والمرزباني في (معجم الشعراء)[٤] ، والآمدي في (الموازنة) ، و (المؤتلف والمختلف)[٥] ، والخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد)[٦] ، والمقدمي ، كما رأينا ، في (الظرائف واللطائف) ، وابن رشيق في (العمدة)[٧] وغيرهم[٨] . وكان أكثرهم افادة منه صاحب كتاب الورقة ، حتى لنظن أحياناً أنه لخص فيه معظم الأخبار من كتاب دعبل .

ويمكن ، على كل حال ، أن تكوّن صورة عن الكتاب من مجموعة النقول والإشارات الواردة في هذه الكتب وغيرها مما يرد فيه ذكر الكتاب .

والأرجح أن يكون دعبل كتب هذا الكتاب في أواخر حياته . فقد ذكر فيه شعراء عاصرهم ونقل بعض أخبارهم ، ويغلب أن يكونوا ماتوا قبل أن يكتب كتابه . ولعله كتب جزءاً منه ، إن لم يكن كتبه جميعاً ، في السنوات الست

---

(١) الكامل ١٤٧/١ و ١٨٤ .

(٢) تتبع أثره بالرجوع إلى معظم الصفحات التالية : ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠١ ، ١٢٣ .

(٣) مصورة اقبال ١٥٢ .

(٤) تتبع ذلك في الصفحات التالية : ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٩ ، ١١٨ ، ١٦٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٦ ، ٣٨٠ ، ٤٣٩ ، ٤٥٢ .

(٥) الموازنة ١٦ و ٣٤٥ ، والمؤتلف والمختلف ٦٧ ، ١٦٩ .

(٦) انظر ـ مثلاً ـ : تاريخ بغداد ٣٤٢/٢ و ١٤٣/٤ .

(٧) ارجع الى الصفحات التالية : ٩٤/١ و ١١٣ و ١٢٢ و ١٣٩/٢ ـ ٤٠ و ١٤٤ و ٣٠٧ .

(٨) انظر أمثلة في : تاريخ دمشق لابن عساكر (التهذيب : ٤٦/٧ و ٤٧) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ٤٣/١ و ٥٤/٢ ، ومرآة الجنان لليافعي ١٢٣/٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأخيرة في حياته ، لأنه ذكر فيه أحمد بن أبي دواد الذي توفي سنة ٢٤٠ هـ ، ونقل شيئاً من شعره[١] .

وقد كانت نسخة من الكتاب في حلب في نهاية القرن السابع (سنة ٦٩٤ هـ) مع نسخة من ديوان دعبل ، لأنا وجدنا اسمه في الفهرس الطريف الذي سمي : المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب . وقد سمي فيه (طبقات الشعراء) ، ووقع تحت رقم ٦٠١[٢] .

ثم فقدناه ، من بعد ، كما فقدنا الديوان .

- ٢ -

وأما الكتاب الثاني فسماه ابن النديم[٣] (كتاب الواحدة) ، وأضاف اليه النجاشي[٤] (في مناقب العرب ومثالبها) ، وأخذت ذلك عنه ، على ما يبدو ، المصادر المتأخرة[٥] . وربما صح أن يكون ما أضافه النجاشي من عنده ، للتعريف بالكتاب .

ويبدو أن هذا الكتاب لم يعمّر طويلا : فإنه لا يرد له ذكر بعد القرن الرابع إلى الخامس . ولعله انتهى بعدها إلى ما انتهت اليه كتب المثالب كلها ، لما تضمنته من طعن وتمزيق[٦] .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٤٣/٤ (نقلاً عن المرزباني) ووفيات الأعيان ٦٣/١ .
(٢) المنتخب مما في خزائن الكتب بحلب ٣٤ .
(٣) الفهرست ٢٢٩ .
(٤) كتاب الرجال ١١٧ .
(٥) انظر مثلاً : منتهى المقال لأبي علي ١٣٢ وهدية العارفين للبغدادي ١ : ٣٦٣ .
(٦) انظر في ذلك ضحى الإسلام لأحمد أمين ٧٢/١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونعتقد أن دعبلاً أفاد في الكتاب مما حصل من معرفة واسعة بالأنساب وبمثالب العرب ومناقبها ، وهي معرفة كان لا بد منها لشاعر العصر بصورة عامة ، وللهجّاء بصورة خاصة ، لما يحتاجه منها في الطعن على نسب المهجو وتمزيقه والكشف عن مواطن الضعف فيه . ويمكن أن يصور لنا سعة هذه المعرفة ما بقي من قصيدته التي ناقض فيها مذهبة الكميت . ولعله (لقربه من الفرس ورجالها ، وخروجه اليهم) كان يسمع أقوالهم في العرب ونقائصها فيَغْنى بها فوق ذلك .

ويرجح أن يكون أفاد فيه أيضاً مما كُتب أيامه من كتب في مثالب العرب ، كتبتها الشعوبية ومن لف لفّها وهتكت العرب فيها حياً حياً ، كما أفاد مما كتبه المناهضون للشعوبية في مناقبها [1] .

اننا لا نعرف شيئاً عن الكتاب اليوم . ولم ترد في المصادر كلة في التعريف به تعيننا على تصور منهجه ومحتواه . على أنه يرجح (لما نعرف من عصبيته المفرطة لليمانية على العدنانية) أن يكون ذكر مثالب عدنان ومناقب قحطان . ولعله ذكر مثلبة للعدنانية في مقابل كل منقبة للقحطانية . ومن هنا ، إذا صح ما نتصوره ، تتضح تسمية الكتاب : بالواحدة .

ولعل هذا كان سبباً لما بدا في المصادر ، من بعد القرن الخامس ، من تجاهل للكتاب ، حتى ليكتفي بذكر ديوان دعبل وكتابه في طبقات الشعراء ، دون أن يذكر هذا الكتاب .

---

(١) تتبع أسماء كتب المثالب والمناقب في الفهرست لابن النديم ٧٩ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٥ ـ ٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ . وانظر ضحى الإسلام لاحمد أمين ١/٧٠ ـ ٧٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— ٣ —

ونسب إلى دعبل كتاب كتب في منتصف القرن السادس (سنة ٥٤٩ هـ) . وهو « كتاب فيه وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود النبي عليه السلام »[1] . ويقع في ثمان وثلاثين ورقة سرد فيها تاريخ ملوك اليمن على نحو ما تخيلته اليمانية ودونته في القرن الثالث . ونسب فيه إلى مؤلاء الملوك شعر كثير جاء أحياناً كثيرة على صورة الوصايا ، وزعم أنهم خاطبوا به أولادهم أو خلفاءهم .

والكتاب صورة لا تكاد تختلف اطلاقاً عن الكتاب الذي نشر في بغداد منذ أكثر من ثلاث سنوات (سنة ١٩٥٩ م) باسم (تاريخ العرب قبل الإسلام) ونسب إلى الأصمعي . وقيل : إنه بخط ابن السكيت !

وكلا الكتابين صورة كاملة ، فيما يبدو ، للكتاب الذي نشر منه الجزء الاول في أربعين صفحة[2] ، في بغداد ، منذ زمن طويل (سنة ١٣٣٢ هـ) باسم (وصايا الملوك العرب في الجاهلية) ، ونسب إلى يحيى بن الوشاء !

وهي كلها صور ، تختلف في بعض المواضع ، للشرح الذي وضع على قصيدة نشوان بن سعيد الحميري التي نظم فيها تاريخ اليمن ، ونشر في القاهرة سنة ١٣٧٨ هـ باسم (خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار الملوك التبابعة) .

ويخيل الينا أنها كلها ليست بعيدة عن أخبار عبيد بن شرية (ت حوالى ٦٧ هـ) و كتاب التيجان الذي روى عن وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ) والإكليل للهمداني (ت ٣٣٤ هـ) ، حتى ليمكن أن تعد هذه الكتب أصلاً لأخبارها ، جمعت منها وزينت بشعر لا يبعد أن يكون اليمانية أشاعوه أو أشاعوا بعضه ، منذ القديم ، على ألسنة ملوكهم ، ليصوروا حكمتهم وسلطانهم الواسع .

(١) مكروفلم بمعهد إحياء المخطوطات العربية (١٣٠٦ تاريخ) مأخوذ عن النسخة المحفوظة في الأمبروزيانا (G 3) .

(٢) ينتهي هـذا الجزء عند الصفحة ٥٦ من كتاب (تاريخ العرب قبل الإسلام) المنسوب إلى الأصمعي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونعتقد أن ذلك ، على كل حال ، لم يتم قبل القرن الخامس أو الرابع على الاقل[1] ، ثم نسب إلى الأصمعي حيناً والوشاء حيناً ودعبل حيناً ، حتى جعل بعد ذلك يزمن في خلاصة السيرة الجامعة .

ونلاحظ ، فيما يتصل برواية الكتاب عن دعبل ، أو راويه المذكور في أوله هو (علي بن محمد الدعبل بن علي) . ولم يرد اسم دعبل معرفاً في غير هذا الكتاب . ولا يبعد أن يكون هذا من فعل أحد النساخ ، ضللته كلمة (الخزاعي) التي تتردد في هذه الأخبار ، على أن المقصود بها أبو سعيد الخزاعي .

وينبغي أن نذكر أخيراً أن الذين ذكروا دعبلاً في القديم والحديث ، وفيهم ابن النديم ، لم يذكروا له كتاباً ثالثاً غير الكتابين السابقين ، وأن الذين ترجموا للأصمعي والوشاء لم يذكروا لهما مثل هذا الكتاب أيضاً .

☆ ☆ ☆

ونخلص مما قدمنا إلى أن دعبلاً كتب كتابين في الشعر وأخبار الشعراء ، وفي مناقب العرب ومثالبها ، صب فيهما ، على ما يبدو ، جماع ما حصل من معرفة بالشعراء وأخبارهم ، وبالأنساب وأحياء العرب ومثالبها ومناقبها . وتلك ، على التحقيق ، أبرز عناصر الثقافة العربية التي كانت شائعة في ذلك الحين ، وكان فرضاً على الشعراء أن يأخذوها ليفيدوا منها في شعرهم ويُغنوا بها حسهم ويقفوا منها على أسرار الصناعة ، ليكون شعرهم على مثال يرضي أذواق الممدوحين من ناحية ، ويرضي ، من ناحية أخرى ، أذواق النقاد الذين كانوا في الغالب من علماء اللغة وكلام العرب .

الدكتور عبد الكريم الأشتر

---

(١) انظر تحقيقاً مفصلاً في الموضوع كتبه الأستاذ حمد الجاسر في جريدة اليمامة : العدد ٢٦٧ الصادر بتاريخ ١٣٨٠/١٠/٩ هـ ، والعدد ٢٦٩ الصادر بتاريخ ١٣٨٠/١٠/٢٣هـ ، بعنوان : الكتاب العربي المخطوط (١ ـ ٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net